إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات - فبر ايرـ٢٠٢٤ م

عن الطاعة المبارَكة

"مثل الأشجار التي تتمايل بفعل الرياح وتدفع جذورها أعمق في الأرض، أولئك الذين يعيشون في الطاعة يصبحون نفوساً قوية وثابتة لا تتزعزع." القديس يوحنا السلمي - الخطوة الرابعة عن الطاعة

الإخوة الأحباء،

لندرس أهمية الطاعة في حياة الرهبان الأوائل ولنفهم تصورهم لهذه الفضيلة العظيمة. من الضروري الإشارة إلى أنه لا مفر من أن نذكر التواضع في مناقشتنا عن الطاعة لأن هاتين الفضيلتين متشابكتان بشكل كبير، لدرجة أنه أحياناً يصعب التمييز بينهما. كيف ذلك؟ لنقرأ كلمات أبا دوروثيوس من غزة عن التواضع وسنجد الطاعة واضحة في أفكاره، ولكنه لا يذكر الكلمة صراحةً: "قبل كل شيء نحتاج إلى التواضع: الاستعداد للاستماع عندما يُقال لنا كلمة، وأن نقول، 'أخطيت'، لأنه من خلال التواضع يُدمر كل مكر العدو، وكل نوع من العقبات."

يمكن القول إن أبا دوروثيوس يرى الطاعة كفعل من التواضع المفروض على النفس. كما يشدد على ضرورة وحدة هاتين الفضيلتين عندما يقول ما يلي: "كما يتم تقييد الخيول معاً في عربة حتى لا يتجاوز أحدهما الآخر، فكذلك يجب أن تكون الطاعة مقيدة مع التواضع. كيف يمكن للإنسان أن يكون جديراً بهذه النعمة، إلا إذا، كما قلت، عامل نفسه بقسوة لقطع رغباته الخاصة وأن يعطي نفسه، بعد الله، لأبيه الروحي، دون تردد، عاملاً كل شيء بثقة تامة كما لو كان يطيع الله. مثل هذا الرجل جدير بأن يجد الرحمة، مثل هذا الرجل جدير بأن يجد الخلاص."

نرى أيضاً نفس روح الفكر عندما نعيد النظر في كلمات قداسه البابا شنودة الثالث مثلث الرحمات حيث علمنا في كتابه "معالم الطريق الروحي"، أن اكتساب الفضائل يتطلب استخدام القوة، أو الإكراه الذاتي. وبالتالي يمكننا القول أن من أجل البدء في اكتساب هذه الفضيلة المباركة للطاعة، يجب أن نتواضع بالقوة ونكسر إرادتنا ونفعل إرادة الآخرين بدلاً من ذلك. يعزز القديس يوحنا السلمي هذه الحقيقة بقوله، "الطاعة هي مكان دفن الإرادة وقيامة التواضع،" والتواضع بالتعريف هو فعل أو حالة التواضع.

يقول القديس يوحنا السلمي أيضاً "طوبى لمن يميت إرادته حتى النهاية ويترك رعاية نفسه لمديره في الرب. سيوضع عن يمين المصلوب." العلاقة الوثيقة بين الطاعة والتواضع تظهر بوضوح في كتابات كلا الأبوين المباركين هذين. الكلمات المقتبسة هنا من القديس يوحنا السلمي هي من الخطوة الرابعة عن الطاعة، لكن اقتباسات أبا دوروثيوس مأخوذة من "مقالته عن التواضع"، ومع ذلك فهي متوافقة تماماً مع بعضها البعض، ويمكن استخدام كلا الكلمتين بالتبادل في العديد من الاقتباسات المقدمة هنا.

يواصل أبا دوروثيوس قائلاً أن، "في الواقع، التواضع يحمي النفس من جميع الأهواء وكذلك من كل تجربة. عندما رأى الأنبا أنطونيوس كل فخاخ الشيطان منتشرة في كل مكان، تنهد وقال كيف يمكن لأحدٍ أن يفلت منها. فأجابه الصوت قائلا: "التواضع يُفلِتك منها" والأكثر إثارة للدهشة، أضاف، 'أنها [أي الفخاخ] لا يمكنها حتي أن تمَسَك'."

كما يضيف في "مقالته عن التخلي": "استمع إلى ما يقوله الرب نفسه لنا: 'تعلموا مني، فإني وديع ومتواضع القلب وستجدون راحة لنفوسكم.' ها هي ذي في جوهرها: السيد المسيح يعلمنا أصل وسبب كل الشرور وكذلك علاجها، الذي يؤدي إلى كل خير. يُظهر لنا أن التظاهر بالتفوق [الكبرياء] يُسقطنا وأنه من المستحيل الحصول على الرحمة إلا بالعكس، أي بالتواضع. البر الذاتي يولد الازدراء وعدم الطاعة يولد الهلاك، بينما التواضع يولد الطاعة وخلاص النفوس. وأنا أسمي ذلك التواضع الحقيقي الذي ليس في الكلمة والمظهر الخارجي فحسب، بل مزروعاً بعمق في قلب الإنسان؛ فهذا ما كان يعنيه عندما قال 'أني وديع ومتواضع القلب'." يستمر أبا دوروثيوس في مقالته قائلاً: "لتعلموا كيف أن الطاعة، وليس اتباع إرادة الذات، أنقذت رجلاً من الموت."

من كتابات هؤلاء الآباء القديسين، يمكننا تعلم ما يلي: الطاعة والتواضع كلاهما عناصر أساسية في حياتنا الروحية، خاصة كرهبان. من خلال الطاعة، يمكننا اكتساب التواضع، والتواضع يمنح العديد من البركات في حياتنا.

يمكننا تلخيص كلمات القديس يوحنا السلمي وأبا دوروثيوس كالتالي: "الطاعة هي مكان دفن الإرادة وقيامة التواضع. ومن خلال التواضع، يدمر كل مكر العدو، وكل نوع من العقبات. وبسبب هذا يكون مثل هذا الرجل جديراً بأن يجد الرحمة والخلاص. سيوضع عن يمين المصلوب وستُغفر خطاياه قريباً. يمضي في طريقه دون اضطراب، دون اكتئاب، بسلام تام في الذهن، وبالتالي لا يكون لديه سبب للغضب أو إغضاب أي شخص آخر. وأخيراً، لتعلموا كيف أن الطاعة، وليس اتباع إرادة الذات، أنقذت رجلاً من الموت."

نسأل الله أن يمنحنا النعمة لنسعي يومياً لاكتساب هذه الفضيلة المباركة حتى نخلص من الموت. آمين.